٢ـ نشأة الدرامة الانجليزية

للأســـتاذ دريني خشبة

يحتفظ الأدب الإنجليزي من الدرامات القديسية بأربع مجموعات تُنسب إلى مدن مختلفة هي يورك ويكفيلد وكوفنتري وشستر ؛ كما يحتفظ بدرامة واحدة من كل من نيوكاسل ودبلن وإيست أنجليا ونورفولك . وتختلف هذه الدرامات طولاً وقصراً وجودة ورداءة ، ويتركب بعضها من ثمانمائة بيت من الشعر ، في حين يتركب البعض الآخر من ثمانين بيتاً فقط ؛ ويتألف بعضها من نظم ونثر ، أو نظم فقط ، أو نثر فقط ، وفي بعضها أغان جميلة كما تحوي بعضها الأغاني الفئة . على أن أجل هذه المجموعات كلها هي مجموعة يورك لتنوع موضوعاتها وجمال أسلوب الكثير من دراماتها ، والحرية الظاهرة في تناول حياة القديسين بالتصوير الجريء ، وكثرة الحركة التي هي حياة التمثيليات جمعاء

أما أقدم درامة قديسية كتبت باللغة الإنجليزية فهي درامة (حَرْث جهنم) أو (إسلافُ جهنم) من سلف الأرض أو أسلفها أي أعدها للزرع بالسلفة ، وهي آلة ذات شعب The Harrowing of Hell ولا يعرف مؤلفها على وجه التحقيق . وقد ألفت في أواخر القرن الرابع عشر في عهد إدورد الثاني ؛ وهي عبارة عن محاورات شائقة بين السيد المسيح عليه السلام وبين الشيطان عليه اللعنة تنتهي بهزيمة كبير الأبالسة ، وتهليل البطاريق وتكبيرهم فرحاً بانتصار المسيح واغتباطاً بإجاباته المفحمة

هذا ، وقد كانت عناصر شتى تشترك في تأليف الدرامة ، فمن ذلك الموضوع ، وهو أهمها بالطبع ، ثم الأسلوب ، وكان يراعى فيه السهولة واليسر ، نظماً أو نثراً ؛ وذلك بعد أن فشلت الدرامات التي ألفها جون لي بأسلوبه الجزل وعبارته الفخمة . وجون لي هو مبتدع أسلوب اليوفوزم الرائع الأنيق المُرَوَّأ في الأدب الإنجليزي ... ثم الموسيقا والألحان والأغاني ... بيد أن واحداً من هذه العناصر كلها يكاد يكون أهمها ، لأنه يتفرد من بينها باهتمام الجماهير ، إذ هو الذي يجذبهم لمشاهدة التمثيل ، ثم هو بعد ذلك أقوى الأسباب في نجاح الدرامة أو سقوطها ... ذلك العنصر هو عنصر الهزل والتضحيك Farcical & Comic الذي لم تكن تخلو منه درامة قديسية قط .

والعجيب الذي يلفت أنظارنا نحن الشرقيين خاصة جرأة رجال الدين والمؤلفين الدراميين على السواء في إشاعة هذا العنصر في تلك التمثيليات الدينية التي تتناول الأنبياء والقديسين ورجال الدين عامة ... حتى الملائكة ... فهم قد هتكوا تلك الهالة المقدسة التي ينبغي أن تكلل رؤوس هذه الشخصيات المبجلة ، وهم قد هتكوها إلى حد التحقير وتهوين الشأن والزراية بما كان من شأن الدين أن يتصونوا في تناوله ... إسمع إلى هذا الحوار الذي نقتطفه لك من درامة « طوفان نوح » لترى إلى أي حد اجترأ المؤلف على شخصية هذا الرسول الكريم ، أحد أولي العزم العظماء ، من هداة البشرية الأولى ... أنظر إلى هذا الحوار لتعجب كيف أجاز رجال الدين تمثيل هذا العبث بين يدي الشعب :

— نوح : أعدت الفلك ، وقد آن لنا أن نبحر ، فهلمي يا زوجتي الصالحة !

— زوجة نوح : ماذا ؟ أركب في هذه السفينة وأترك تلك الأرض الراسخة ؟ أوه ! كلا ، كلا . إنها لم تصنع من أجلي ؛ ومع ذاك ، فلدي ما يشغلني يا صاح ، فإني ذاهبة لقضاء حاجات كثيرة تلزمنا من السوق اليوم

— نوح : والطوفان ؟! ألا تخافين أن تغرق ؟

— الزوجة : آه ! كلا . لا عليك . إن هذا لا يخيفني !

— نوح : لقد هطلت شآبيب المطر ، وتفتحت أفواه السماء ، ولست أرى أنها ستقلع ، فتعالي واركبي في الفلك معي !

— الزوجة : الفلك ؟ ماذا تعني ؟ ما هذا السر الذي أخفيته عني ؟ لماذا لم تستشر زوجتك في أمره ؟

— نوح : سر ؟ ليس هناك سر قط ! إنني لبثت أصنع هذه الفلك طيلة قرن بأكمله . ولقد شهدتني أصنعها طوال هذه المائة من السنين ألف ألف مرة بعينيك !

— الزوجة : حسن ، بيد أنني لا أحفل كثيراً بالحياة في هذا المركب ، إني سعيدة ههنا ، ولست أستروح الحياة فوق الماء قط ... ثم إني ... لا أريد أن أصحبك !

— نوح : ولكن ... إنك تغرقين ، ما من ذلك بد ، إن لم تفعلي !

— الزوجة : ولكنك أفسحت فى مركبك المجال لخصوى والمتقولين علىّ من المؤمنين بك . . . وهم حفنة ! على أننى أعجب كيف تغريني باصطحابك وترك كل هذا المجتمع ، لأعاشر فى فلكك الوحوش والطيور والزواحف ؟! أفٍّ لك ! إن إغراءك إياى ليغثى نفسى ويكرب صدرى !

« وهنا تلكمه بقوة فوق أذنه »

— نوح : هدئى روعك أيتها الزوجة الصالحة . هدئى روعك ! ولا يزال بها نوح حتى تستسلم وتركب آخر الأمر ، لكنها تثير الشغب فى السفينة من أول الرحلة إلى آخرها ، فى مشاهد تضحيكية متصلة ، لا نرى أنها كانت تتناسب مع الوقار اللازم للرسل

فانظر كيف تلكم نوحاً زوجته فى تلك الدرامة الجريئة ، كما ساط اليهودى قديس الكنيسة فى الدرامة التى لخصناها لك سابقاً ... على أننا سوف نتناول هذا النوع من الدرامات الكوميك (التضحيكية) بالتفصيل فى موضعه من الطور الثالث

الطور الثالث

الدرامات الأخلاقية والفواصل Moralities & Interludes

ذكرنا فى الموجز الذى وضعناه فى مستهل هذا البحث ، فى العدد السابق ، أن الدرامات الأخلاقية نسخت بالاشتراك مع الفواصل ، الدرامات القديسية وحلت محلها . وفى إيراد الكلام على هذا النحو شىء من المبالغة . وربما كان عذرنا فى ذلك أن خلافا شديداً قام بين المؤرخين على أصل هذه الدرامات الأخلاقية ، فمنهم ، وهم الأكثرية ، من يقولون إنها نشأت من الدرامات القديسية . ومنهم من يعارض هذا الرأى ، وينفى أن تلك فرع من هذه ، وعلى رأس هؤلاء الأستاذ مورلى Morley من أساطين مؤرخى الأدب فى العصر الحديث . على أنه لا مشاحة فى أن الإنجيليات والقديسيات قد نشأت فى الأمم اللاتينية عامة وانتقلت مع رسل الكنيسة من فرنسا إلى انجلترا . أما الدرامات الأخلاقية Moralities فأكثر المؤرخين على أنها نشأت على أصول القديسيات ، وأنها ثمرة من دوحتها الباسقة . وندع بعد هذا الناحية العلمية من مناقشة الفريقين المتناظرين ، لأنها ليست من شأننا فى هذا البحث . والدرامة الأخلاقية هى تلك الدرامة التى تعنى بالحقائق المجردة abstracts و truths من فضائل ورذائل ، فهى تجعلها أبطالاً وتتخذ منها شخصياتها وموضوعاتها ، ويرجع هذا التجديد إلى أواخر القرن الرابع عشر حينما انتشر الشعر المجازى المشتمل على الكنايات والاستعارات المختلفة . وقد يكون لضيق الشعب بالدرامات القديسية أثر فى هذا التحول ، إذ أنه مل هذا النوع الواحد من التمثيليات الدينية التى أوشك أن يحفظها عن ظهر قلب لكثرة تكرارها ، فأراد المؤلفون أن يتساموا بالدرامة فاقتحموا ميدان الأخلاق ، لأنهم إنما كانوا ينشدون نشر الفضيلة — بعد تلقين دروس الدين — بما يقدمون للنظارة من هذه الدرامات . ولا غرو أن فرنسا كانت قد سبقت انجلترا فى ابتكار هذه الدرامة الأخلاقية ، ولا يبعد أن تكون قد اقتبستها عنها كما اقتبست الإنجيليات من قبل : أما أن الدرامات الأخلاقية قد نسخت ما قبلها ، فقد حدث ذلك بالتدريج فعلاً . فهم يذكرون أن آخر درامة قديسية قد مثلت فى أواخر القرن السادس عشر . أو بالضبط سنة ١٥٩٨ ثم ظلت الدرامات الأخلاقية تمثل بعد ذلك إلى أن ازدهر المسرح الإنجليزى بدرامات ماريو وشيكسبير وبن جونسون . ومن هذا يفهم أن القديسات واكبت الأخلاقيات زمناً طويلاً حتى تغلبت الأخيرة وحلت محلها . وقد كانت الرذيلة أقوى شخصيات الدرامة الأخلاقية . وكانت تحل دائماً محلاً هزلياً كما كانت الفضيلة توضع فى مواضع الجد . فكان يمثل الرذيلة معتوه أو ضحكة أو أبله يجيد صوغ النكات والحركات التضحيكية ، وكان يبدو دائماً وفى يده خنجر من الخشب ، كما كانت ملابسه تثير الضحك الشديد . ولم تكن شيمة من الشيم إلا ولها موضع من درامة من هذه الأخلاقيات التى تكون فيها الشخصيات قسمة بين الفضائل والرذائل . فمقابل الطمع توجد القناعة ، ومقابل الزنا يوجد العفاف ، ومقابل الكذب يوجد الصدق ، وضد الظلم العدالة وهكذا دواليك . وكان مقصوداً بتمثيل هذه الرذائل أن يحدث تباين Contrast مع الفضائل حتى لا يمل النظارة من كثرة الحض على التمسك بأهداب الفضيلة . ولهذا السبب كان وكد المؤلف أن يجعل شخصية رذيلة ما من الرذائل — كالجبن أو الشح مثلاً — مثيرة للضحك الذى يهز القلب ويفجر

المشاعر ، فإذا نال السامعون هذا النصيب من الترويح انتقل بهم المؤلف إلى شخصيات الفضائل الرزينة العاقلة ـ كالشجاعة والجود مثلاً ـ فجعلهما يردان على الجبن والشح فى وقار وهَوْن ، ثم ينتقل إلى الرذائل ليعطى النظّارة نصيباً من الضحك وهكذا حتى تنتهى الدرامة

وكانت الفترة التضحيكية المخصصة للرذائل تسمى فاصلاً ـ أو استراحة ـ Inter lude . وظل هذا هو النظام المعمول به فى مزج الأخلاقيات بالفواصل حتى جاء جون هيوود Heywood (١٥٠٦ — ١٥٦٥) فألف فى الفواصل خاصة ، وبذلك أخذت تستقل عن الأخلاقيات وتكون نواة للملهاة Comedy . وقبل أن نتكلم عن الفواصل نَلم إلمامة ختامية بالأخلاقيات لنعطى القارئ نماذج سريعة من أنواعها ليكوّن لنفسه صورة من النضال المتصل والجهاد الرائع الذى مهد للمسرح الإنجليزى المتيد فى عصر شيكسبير العظيم . فمن هذه الدرامات الأخلاقية ما كان دينياً بحتاً مثل درامة قلعة المثابرة The Castle of Perseverance من عهد هنرى السادس ، وموضوعها الحرب بين النوع الإنسانى Human Genus وزملائه الفضائل السبع الرئيسية ، ضد الكبائر السبع بقيادة زعمائها الثلاثة : مندس وبليال وكارو الذين يحاصرون النوع الإنسانى فى قلعة المثابرة ، ثم نجاة النوع الإنسانى آخر الأمر . ومن هذا القبيل درامة « كل إنسان » وقد كتبت قبل سنة ١٥٣١ وفيها يُستدعى (كل إنسان) هذا أمام محكمة إلهية ليقدم حساباً على ما قدمت يداه فى الحياة الدنيا ... وهنالك تخذله رفاقه « الزمالة والخفة والقوة والسرور والجمال » فى حين لا يجد له نصيراً إلا حسناته التى تقدمه « إلى الاعتراف » الذى يبرئ ساحته

ومن تلك الدرامات أيضاً ما نلحظ فيه أثر حركة الإصلاح الدينى والروح البروتستنتى الجديد ، مثل درامة العرف الجديد New Custome أو درامة معركة الضمير . ومنها ما كان يتجه اتجاهاً علمياً يتمشى مع نور النهضة مثل درامة « العناصر الأربعة » ، وهى نضال بين العرفان وفضائله ، والجهالة ومضارها ؛ ونحوها درامة (الذكاء والعلم) . ومنها ما كان سياسياً ، مثل درامة (الفارس ألبيون) وهى تصور ذلك النضال الهائل بين الأشراف والعامة ، والصدام الذى انتهى بالإصلاح الدستورى الكبير فى بريطانيا . ونحوها درامة لوردات لندن الثلاثة وسيداتها الثلاث ، وهى ملهاة لكاتب اسمه روبرت ولسن . وكان يحترف التمثيل . والسيدات هن النفعة الخسيسة والحب والضمير . أما اللوردات فهم السياسة والأبهة Pomp والسرور (وأولئك هم سادة لندن) ـ ثم الكبرياء والطمع والظلم (وأولئك هم سادة أسبانيا) ـ ثم الرغبة والمسرة والولاء (وهؤلاء هم سادة إنكلترا) وقد كتبت هذه الدرامة بعد تحطيم الأرمادة الأسبانية . وفيها تحقير شديد للأسبان وإشادة بالمجد الإنجليزى

هذا ، وقد أُلّفت بعد هذه المرحلة درامات لا هى أخلاقية كلها ولا هى فواصل كلها ، بل كانت (بين بين) إن جاز هذا التعبير

أما الكلام عن الفواصل فيحسن أن يستقل بفصل خاص لأهميته ، ولأنه كان البذرة الأولى للملهاة الإنجليزية ، وهو ما سنتناوله فى الفصل المقبل .

دريني خشبة

إلى هواة المغناطيسية

وإلى المصابين بالاضطرابات العصبية

ترسل تعليمات مجانية من شرح طرق وتدريبات تعلمك كيف تتخلص من الخوف والوهم والخجل والكآبة والوسواس ومن جميع الاضطرابات العصبية والعادات الضارة كشرب الدخان ومن العلل والآلام الجسدية وفى تقوية الذاكرة والإرادة ودراسة الفنون المغناطيسية لمن أراد احتراف التنويم المغناطيسى والحصول على دبلوم فى هذا الفن اكتب إلى الأستاذ ألفريد توما ٧١٩ شارع الخليج المصرى بغمرة بمصـــر وارفق بطلبك ٣٠ مليماً طوابع المصاريف فتصلك التعليمات مجاناً .